نداء القَصَب

أحمد دحبور

يَهْرَمُ السَّبْتُ ولا يأتي الأحدْ
يهربُ البيتُ إلى شرفته من ساكنيهْ
وتدقُّ السّاعةُ الحمقاءُ مسمارَ سُعَالٍ:
تسأل السّاعةُ عمَّن يستعير الوقتَ أو مَن يحتويهْ
فيحلّي السُّكَّرُ الشّايَ،
وتنحلُّ الثّواني في الأبدْ
هكذا لا يُشرَب السّاخنُ بل ما جالَ في ظاهرِهِ
ويعوم الضّوء، والضّوضاء،
والزّخرف، والنّسيان، والظلُّ.. إلى آخرِهِ
يتساوى خنجرٌ تحت يد الرّؤيةِ،
بالكرسيِّ أخفاه العمى،
بالحرف مهتزّاً على جفن الرمدْ
هكذا ينفتح الباب على آخرِهِ
.. ثمّ لا يأتي أحدْ

كلُّ ما تأتي به الرّيحُ أتى من قبلُ،
والطّفل الّذي أغفى ليُعْفى من نداءات الأبِ الكهلِ،
هو الكهلُ الّذي شبَّ صباحاً،
فأشاحتْ، بعد حينٍ، عنه لولا شهوةٌ تزعم تأليفَ الولَدْ
واستقرَّ المشهدُ الموصدُ:
في منفضة التّبغ رماد باردٌ تحت الدّخانْ
يشغلُ الوجهَ فمٌ لا اثنانِ،
لكنْ ليس من يسألُ: فيم اشتعلَتْ، في لحظة،
سيجارتانْ؟

هُوَذا الموت وما مَنْ يتّقيهْ
هيَ ذي الصّحراءُ،
من طاولة السُّفْرةِ حتّى الهاتفِ المشغول بالخطِّ الغلَطْ
هُوَذا الصّمتُ الّذي يُفْضي إلى صمتٍ يليهْ
إنّه النّومُ فقطْ
وهباء مُتْقَنٌ،

←

سيّانِ أن يقطنَهُ الجنّيُّ أو تشتقَّهُ الذَّرَّةُ،
فالأمر اختلطْ!

إنّه الظّلّ وما من طائرٍ أو عابرٍ،
ما من جَناحٍ،
بل جدارٌ مالسٌ يشبهُهُ رأيُ الجبانْ
وعلى غير بعيدٍ تصقل المرآةُ ما فيها،
لعلَّ البيتَ أصلاً فكرةُ المرآةِ،
والفكرة بنتُ اللاّمكانْ

زهرةُ النّارنج، في الصّورة، ما فاحتْ لها رائحةٌ،
لم يُغرِها ضوءٌ لتفترَّ،
ولم يجرِ عليها عطَنٌ رغم الزّمانْ
كيف لا يحدث شيءٌ؟ أيُّ شيءٍ!!
ليس في النّشرة ما يُغْضِب أو يُضْحِكُ،
ما في لعبة الأحرف ما يُشْغِلُ أو يُرْبِكُ،
ما من قطّة في سبع أرواحٍ،
ولكن بعض روحٍ سكنتْ سَبْعَ قِططْ
كيف لا يحدث شيءٌ؟ أيُّ شيءٍ!!

يهرب البيتُ إلى شرفته من ساكنيهْ
تُمْسك الصّحراءُ بالشارع من ساريتيْ نورٍ
إلى تيهٍ وتيهْ
وتشقُّ الثّوبَ أمٌّ:
ـ ولدي الغالي من العالي سقَطْ
هكذا زلزلزلت البئرَ حصاةْ
واستضاءت، بالحصاة، الكلماتْ
كلمات ما لها ما تدَّعيهْ
ليس إلاَّ جَرَسٌ رنَّ على الموت لإثبات الحياةْ

ضاق بالأرض، فانسحَبْ
وهو مازال بيننا
عالياً عالياً ذَهَبْ
إنّما رأسُهُ هنا
هو عودٌ من القصَبْ
كلّما اصّاعدَ انحنى

وكلّما عثرتُ بالنهارْ
تعرَّقَ الجدارْ

أكلُّ هذا نَفَسي؟
أم قطرة تجمَّعتْ في السّقفِ،
وانصبَّتْ على صفيحةٍ منسيَّةٍ،
تنقُّ في رأسي فتغدو جَرَسي؟
تضخَّمي يا قطرةَ الشّيطانِ،
كوني كرةً وهشِّمي الزّجاجَ،
صيري امرأةً وسَمِّمي المزاجَ،
عودي هَوْلةً وافترسي
لديكِ أسبابي لتُغْرِقيني
لديَّ أسبابُكِ لاستثارة الجنينِ
ـ اخرجْ إلى الدّنيا،
ـ لماذا؟
ـ لأكونَ مرَّةً سِوايْ
لأُخرِجَ الحيَّ من الحيِّ وسهمَ الشكِّ من دائرة اليقينِ
لتُعْتِقَ الأنهارَ ضفتايْ
لأنّني تهرَّأتْ بذيلِ مَن تجرُّني يدايْ
لأنّني سجيني
اخرجْ لتستبدلني بما تشاءُ من أبٍ مجرِّب محترسِ
اخرجْ، وقلْ: «أفٍّ»،
وإن تنظرْ إلى يديَّ فانهرْ فَرسي
ما فيك مني غير ما تجهل عني،

←

فانتزِعْني تدْرِ أنّي دارةُ الحنينِ
اخرجْ إلى الدّنيا . .
ـ خرجتُ . . ،
قطرةً فقطرةً تجمَّعَ الطّوفانُ،
طافتْ، في المدى، عيناي
نظرتُ خلفي فاكتشفتُ ما أمامي،
عورة الظّلام،
واستراحة الحكّامِ في تاريخيَ المنتكسِ
لأنّني سجيني
قتلتُني،
ـ أهو انتحارٌ أم خروجُ مارقٍ من وجههِ المُلْتبسِ؟
هل صفحةٌ بيضاءُ هذا الأفْقُ أم كنايةٌ؟
هل تحْدس الأيّام بي أم سَفَري حكايةٌ؟
أين أنا؟ ومَنْ؟
هل ارتعاشةُ النّخيلِ نزوةُ الرّمال أم تواترُ الزّمَنْ؟
ـ وهذه الدّنيا الّتي ضيّقتَ
حتّى خلتَها جاريةً لديكَ،
مَن وَسَّعَها حَوْلي فجاهدْتُ

وأبعدتُ
إلى أن عدتُ لستُ أدري؟
إن كان لي سِرٌّ فلستَ سِرّي
ما فيَّ منكَ غير ما أعرف عنكَ في العلَنْ
لا شيءَ غير وحشةِ المكانِ،
لا مرآةَ،
والعينان تسقطان في المكان لا الوطنْ

وهكذا أدخلُ في حنجرتي وراء صوتيَ اليابس المحتبسِ
وصخرتي في صرختي مكتومة،
فهل سيكفي جَرَسي؟
يرنُّ أو يئنُّ في تداعيات قطرةٍ،
وكلّما عثرتُ بالنهارْ
تعرَّقَ الجدارْ
أكلُّ هذا نَفَسي؟
أكلُّ هذا نَفَسي؟
الموج يرجو ويشهقْ
وأنتِ فيه رهينهْ
والماء يصعد أعمقْ
فهل خرقتِ السفينهْ؟
أم أنّه البحر يغرقْ
وأنتِ تنتشلينَهْ

والمدينهْ
مفرداتٌ لا لغهْ
طلع الشِّعر عليها قُزَحاً،
فاصطيدت الألوان واستولتْ عليها المصبغهْ
لم تبادلْكِ سلاماً بسلامْ
كلّ باب مغلقٌ،
كلّ يد مقبوضةٌ،
كلُّكِ فيها نقطةٌ تسأل عن حرفٍ لأيتام الكلامْ
خلفها بحرٌ وفي جبهتها الصّحراءُ،
ماذا تحسبين الوقت، يعطيكِ،
ولم تنشقَّ أرض عن يدٍ،
أو ضحكة عن ياسمينهْ؟
ـ أضربُ الرّمل الّذي تُنضجه الصّحراءُ،
بالرّمل المندَّى بهياج البحرِ . .
ـ هل تدرين كم في الرّمل أعمارٌ،
وكم لا شيءَ في الرّملِ،
وكم تنفرط الشّهوة والرّغوة في موج الظّلامْ؟
ـ أنت من أنتَ؟
أنا الحلم الّذي لا تحلمينهْ

←

الأقاصي رئتي،
لكنما رجلاي في الرّمل،
وروحي في السّفينهْ
وأنا النّافذ صوتي من تلافيف المدى كلَّ نفاذِ:
إنّ صقراً والغاً في كبدي،
ليس عذابي.. بل ملاذي
إنّ لـي نـاراً سـوى البئـر الّتـي بـارت فصـارت عـورة الصّحراءِ،
ليَ أنّي أرى عينيَّ تغلي فيهما الرّؤيا،
ترين القصر في أبّهة الأنباءِ،
فيما ترياق القاصرَ المترفَ في القصر المحاذي
وإذا ما اندلقتْ صفحة دهنٍ وضغينَهْ
لمَّها السّبتُ فصارتْ ذكراً للسبتِ،
ممّا ملكتْ أيمانه أنتِ،
وممّا سجَّلتْ أطيانه هذي المدينهْ

يهرم السّبت ولا يأتي الأحدْ
وقته من طرَبٍ أو رُطَبٍ،
والعقربان الذّهبيّان زمان معتمَدْ
داخلٌ في العصر حتّى إنّه محتقنٌ بالكهرباءْ!!
صرّة البئر على الخصر، ويبني خيمة في القصرِ،
يبكي لحنين القوس في ذيلِ حصانٍ،
فيسلّيه ثريدٌ من أغانٍ بخرافٍ ذُبِحتْ شَرْعاً وويسكي بالنساءْ

وأنا الحلْمُ الّذي لا تحلمينَهْ
يفتحُ المشهد لي أسراره بين دخانٍ ورذاذِ:
إنّ أفقاً غير هذا.. فيه شمسٌ غير هذي
ولنا التّفاحُ،
لكنْ ورقُ التّين الّذي يسترنا لن نقْبلَهْ
ولنا أنّا سيأتي طفلنا، في فمه ملعقةٌ من أسئلهْ
ـ كيف، والرّمل جوابٌ مُقْفَلٌ، ترتجلُ المفتاحَ؟..
ـ باح الدّمع لي،
عندي رماد قادرٌ أن أُشْعِلَهْ
غير أنّي في الصّحاري
بدمٍ تُطْفَأُ ناري
لا بماءٍ..
الينابيع شحيحَهْ
ونقـاط المـاء والأحـرف تبلـى فـي بـراري لغـة الجهـل الفصيحهْ

ـ ثمّ ماذا؟
ـ ليس عندي رُقْيَةٌ، عندي فضيحهْ
فاسحبيني من وقاري
ولنعرِّ النّهرَ من أسرارهِ،
حتّى يبوح القصب المحنيُّ للريح بأسرار النّهارِ:
إنّ للروبوت، في القصر، مفاتيحَ من اللّذةِ،
يوماً خارج الأسبوعِ،
شهراً جيء خصّيصاً به من خارج العامِ،
وحرّاساً من الجنِّ أو الذرّةِ..
لا فَرْقَ،
وسوقاً من جَوارِ
ولهذا تئنُّ ريحُ الصّحاري
ويرى الطّفلُ أمَّهُ في الذّبيحهْ
ولهذا، بنات نَعْشٍ قطاري
وورائي الظّلام يملي نصيحهْ
غير أنّي دمي يشقُّ نهاري
بنقاطٍ على الحروف الصحيحهْ

تونس السّبت ٦/٣/١٩٩٣